

تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعِلْمُهُ: { إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُّوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَفُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا تَعْفُرُ لَكُمْ حَطِيَّاتًا كُمْ سَنَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ } وَادْكُرْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ خَصائِصَ هُؤُلَاءِ الْيَهُودِ الْعَرِيقَةِ فِي أَسْلَافِهِمْ؛ لِيَعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ لَكَ وَإِنْكَارَهُمْ لَمَا عَنْهُمْ مِنْ صَفَاتٍ أَنَّهُ أَمْرٌ أَصْلُهُ فِيهِمْ وَفِي أَسْلَافِهِمْ. وَادْكُرْ { إِذْ قِيلَ لَهُمْ } حِينَ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ عَلَى أَلْسُنَتِهِ أَنْبِيَاءَهُ: { اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } قَوْلُهُ: { اسْكُنُوا } أَمْرٌ مِنَ السُّكُنِ لَا مِنَ السُّكُونِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَرْكَةِ؛ لَأَنَّ الْأَمْرَ بِالسُّكُونِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْحَرْكَةِ سُجْنٌ وَحَبْسٌ؛ فَهُوَ أَمْرٌ بِالسُّكُنِ وَأَنْ يَتَخَذَ ذَلِكَ الْبَلْدَ مُسْكُنًا. وَكُونُ الْبَلْدَ مُسْكُنًا لَهُ لَا يَنَافِي أَنْ يَتَجَولَ فِي أَنْحَاءِهِ وَيَتَنَعَّمَ فِيهَا؛ كَمَا قَالَهُ مَا بَعْدَ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: { اسْكُنُوا } { وَكُلُّوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ } هَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: { إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } . أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْقَرْيَةَ هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ وَبَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُ: هِيَ أَرِيَاحًا وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ فَهِيَ قَرْيَةٌ فِي فَلَسْطِينَ مِنْ قَرَى الشَّامِ؛ لَأَنَّ الشَّامَ كَانَ يَطْلُقُ أَوَّلًا عَلَى مَا يَضْمِنُ دَمْشِقُ وَفَلَسْطِينُ وَالْأَرْدُنُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ نَوْحَةٍ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: { إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ } . الْقَرْيَةُ هِيَ الْمَحْلُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ السُّكَّانُ، مِنْ قَرِبَتِ الْمَاءِ فِي الْحَوْضِ إِذَا جَمَعْتُهُ . { إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُّوْا مِنْهَا } : أَيْ كُلُّوْا مِنْ ثَمَارِهَا وَجَبَوْهَا وَزَرَعُوهَا حَيْثُ شِئْتُمْ؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي أَتْيَهِ يَتَمَنَّوْنَ الْأَكْلَ مِنْ ذَلِكَ كَمَا قَدَمْنَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ { فَأَذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تَنْتَهِي الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقِنَائِهَا وَفُوْمَهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلَهَا } وَقَدْ قَالَ لَهُمْ: { أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ } . وَلَمَّا أَمْرَوْا بِدُخُولِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَسَكَنُهَا أَمْرَوْا بِالْأَكْلِ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ إِبَاحةٌ وَتَكْرِيمٌ { وَكُلُّوْا مِنْهَا } : أَيْ مِنْ ثَمَارِهَا وَجَبَوْهَا وَزَرَعُوهَا وَغَيْرَ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ { حَيْثُ شِئْتُمْ } أَصْلُ "حَيْثُ" فِي لِغَةِ الْعَرَبِ كُلَّمَةٌ تَدْلِي عَلَى الْمَكَانِ كَمَا تَدْلِي "حِينَ" عَلَى الزَّمَانِ رِبَّا ضَمِنَتْ مَعْنَى الْشَّرْطِ. يَجُوزُ فِي الْعَرَبِيَّةِ لَا فِي الْفَرَاءِ تَثْلِيثُ فَانِّهَا وَإِبَالُ يَانِّهَا وَأَوَّلُهَا رَغْدًا بِدَلِيلٍ مَاتَ فِي الْبَقَرَةِ: { فَكَلُّوْا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْدًا } . وَقَوْلُهُ { وَفُولُوا حِطَّةً } لَمَّا كَانَ فِي أَتْيَهِ مَاتَ بْنُ يُوسُفَ هَارُونَ أَوَّلًا، ثُمَّ مَاتَ مُوسَى فِي أَتْيَهِ كَمَا أَطْلَقَ عَلَيْهِ الْمُؤْرِخُونَ. ثُمَّ إِنَّ خَلِيفَةَ مُوسَى كَانَ يَوْشَعَ بْنَ نُونَ بْنَ إِفْرَاهِيمَ بْنَ يُوسُفَ الَّذِي فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَرْيَةَ قَرِيبَ الْجَبَارِينَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ أَوْ أَرِيَاحًا وَقَيْلَ غَيْرَ ذَلِكَ. لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ أَنْعَمَتْهُمْ الَّتِي أَعْنَمَتْهُمْ فَأَمْرَهُمْ بِقُولٍ وَأَمْرُهُمْ بِفَعْلٍ. أَمَا الْفَعْلُ فَقَدْ أَمْرَهُمْ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ؛ أَيْ يَدْخُلُوا مِنْ بَابِ الْقَرْيَةِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ لَهُمْ سُجَّدًا. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمَرَادُ بِالسُّجُودِ هُنَّ الرُّكُوعُ تَوَاضُعًا وَانْحِنَاءً وَتَعْطِيمًا لِلَّهِ وَشَكِّرًا لَهُ عَلَى نِعْمَةِ الْفَتْحِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمَرَادُ بِالسُّجُودِ عَلَى الْجَهِيَّةِ يَسْجُودُونَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ أَمْرَوْا أَيْضًا بِقُولٍ وَهُوَ أَنْ يَدْخُلُوا الْبَابَ وَهُمْ يَقُولُونَ: { حِطَّةً } وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ: { حِطَّةً } لِأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُونَ أَنَّ حِطَّةَ الْمَصْحِيحَ أَنَّهُمْ تَعَدُّوْنَ بِهَذِهِ الْلَّفْظَةِ: { حِطَّةً } وَقِرَاءَةَ الْجَمَهُورِ الَّتِي لَا يَجُوزُ الْعَدُولُ عَنْهَا حِطَّةً بِالرَّفِيعِ وَهِيَ خَبْرٌ مِنْتَدِيًّا مَحْذُوفٌ أَيْ "مِسَالَتَنَا حِطَّةً". وَالْحِطَّةُ "فَعْلَةٌ" مِنَ الْحَطَّ الذِّي هُوَ الْوَضْعُ وَالْمَعْنَى مَسَالَتَنَا لِرِبِّنَا هِيَ حِطَّةُ لِذَنْوبِنَا وَأَوْزَارِنَا؛ مَعْنَاهُ مَسَالَتَنَا لَكَ أَنْ تَحْطُ عَنِّا ذَنْوبِنَا وَأَوْزَارِنَا. هِيَ كَلِمَةُ اسْتِغْفَارٍ تَؤْذِنُ بِحَطِّ الذَّنْبِ وَوَضْعِ الْأَوْزَارِ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْتَدِيًّا مَحْذُوفٌ "فَعْلَةٌ" مِنَ الْحَطَّ بِمَعْنَى الْوَضْعِ هَذِهِ مَعْنَاهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ "الْحِطَّةُ" الْكَلِمَةُ الَّتِي تَحْطُ الذَّنْبَ وَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرَ. وَقَدْ ثَبَّتَ فِي صَحِحِ الْبَخَارِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُمْ أَمْرَوْا بِقُولٍ وَأَمْرُهُمْ بِفَعْلٍ. وَأَمْرُهُمْ بِالْقُولِ وَالْفَعْلِ كَلَاهُمَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ؛ لَأَنَّ اللَّهَ أَمْرَهُمْ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَهُوَ الْفَعْلُ الَّذِي أَمْرَوْا بِهِ وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَقُولُوا حِطَّةً وَهُوَ الْقُولُ الَّذِي أَمْرَوْا بِهِ، فَفِي حَدِيثِ أَبِي هَرِيرَةَ وَغَيْرِهِ: أَنَّهُمْ بَدَّلُوا الْقُولِ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ بِقُولٍ غَيْرِهِ، وَبَدَّلُوا الْفَعْلِ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ بِفَعْلٍ غَيْرِهِ؛ وَلَذَا قَالَ تَعَالَى: { قَبَدَّلَ الَّذِينَ طَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ } . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمَرَادُ بِهِ حَدْفَانٌ؛ أَيْ فَبَدَلُوا الْذِينَ ظَلَمُوا بِالْقُولِ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ فَوْلًا غَيْرِ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ. فَالْفَعْلُ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ هُوَ دُخُولُهُمُ الْبَابَ سُجَّدًا؛ بَدَلُوهُ فَدُخُولُهُمْ يَزْحِفُونَ عَلَى أَسْتَاهُمْ؛ كَمَا ثَبَّتَ فِي حَدِيثِ الْبَخَارِيِّ الْمَذْكُورِ. وَبَدَلُوا الْقُولُ الَّذِي قَيْلَ لَهُمْ فَقَالُوهُمْ مَكَانَ حِطَّةً { حِبَّةً } فِي شِعْرَةٍ { وَفِي بَعْضِ رَوَايَاتِ الْحَدِيثِ فِي غَيْرِ الْبَخَارِيِّ { حِنْطَةً } شِعْرَةً }؛ فَبَدَلُوا الْقُولِ وَبَدَلُوا الْفَعْلِ. وَقَابَلُوهُمْ نَعْمَ اللهُ بِالْكُفَّارِ وَالْمُعْصِيَةِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ عِيَادًا بِاللهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: { وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا } .